الدرس الثالث / تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

قراءة الطالب: الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

يقول المؤلف –رحمه الله تعالى–:

"والإلهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً ويفردونه بالحب، والخوف، والرجاء والإخبات، والتوبة، والنذر، والطاعة، والطلب، والتوكل، ونحو هذه الأشياء، فإنّ التوحيد حقيقته، أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى، وهذا المقام يثمر التوكل وترك شكاية الخلق، وترك لومهم والرضا عن الله والتسليم لحكمه، وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى لعباده، والتأله من عباده له سبحانه، كما أن الرحمة هى الوصلة بينهم وبينه ﷻ واعلم أنّ أنْفَس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى".

الشيخ –حفظه الله–: الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد:

فمما قررناه في الدرس الماضي أن توحيد الربوبية إن تمّ بأركانه على الوجه الذي يحبه الله تعالى ويرضاه يستلزم توحيد الألوهية وأن من وحّد الله تعالى توحيد الألوهية فإن ذلك متضمن لتوحيد الربوبية وإن التوحيد قد حصل.

المصنف –رحمه الله تعالى– للترابط بين هذين النوعين من التوحيد

يزيد ويكرر وبدأ الكلام بالألوهية وسبقه في الدرس الماضي عن الربوبية ثم يعود وسيذكر توحيد الربوبية وهكذا، وهذه المحاضرة والتي قبلها بمثابة المقدمات، ثم بعد ذلك نركض ركضا ونتعجل في قراءة مادة الكتاب بإذن الله تعالى.

قوله: "فإن التوحيد حقيقته" التوحيد: مصدر، وفعله: وحّد يوحدُ توحيداً، ومعناه جعلُ الشيء واحداً، فمادة هذا الشيء واحد، ومعنى توحيد كاصطلاح كما قال شيخ الإسلام في التدمرية : "حقيقة التوحيد ألا يُشركه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيء فيما هو من خصائصه"، فالله جل في علاه اختص بأمور لا يجوز أن يشاركه فيها غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو متفرد بالخلق، متفرد بالرزق، متفرد بتدبير الكون؛ فهذا كله يخص توحيد الربوبية، ولا يجوز أن يشارك الله تعالى غيره في هذا، وكذلك الله عَزَّوَجَلَّ مختص بأسماء وصفات؛ فلا يجوز أن يشاركه في أسمائه وصفاته أحد البتة، وكذلك الله عَزَّوَجَلَّ مختص بالتأله، والتعبد، مع كمال المحبة، مع كمال الذل بين يديه، فالمحبة مع الذل هي حقيقة العبادة وهذا أمر خاصٌّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، ولا يجوز لأحد أن يشارك الله تعالى في هذا، ولذا قال: "واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى"، والتوحيد هو توحيد الأنبياء وتوحيد الأنبياء توحيد واحد لا ثاني له، فالأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام كما قال الله عَزَّوَجَلَّ {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}، ومعنى الإسلام أن يستسلم العبد لله تعالى وألا يخضع لإرادته مع محبته إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتوحيد من أجلّ الأعمال، ومن أجلّ العلوم، لأن فضل العلم بفضل المعلوم، والمعلوم في مباحث التوحيد هو الله جلّ في علاه، ولذا كانت شهادة أن لا إله إلا الله هي شعار دخول الإسلام ولا يمكن لعبد أن يكون مسلماً وهو لا يشهد أن لا إله إلا الله فهذه الشهادة فيها الإلهيات، وفيها الأصول وفيها توحيد الربوبية، وفيها توحيد الألوهية، وفيها توحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول تدور عليها دعوة الرسل وما أنزل الله تعالى إليهم وهي الأصول الكبار التي دلّت عليها

وشهدت لها العقول السليمة، والفطر المستقيمة؛ فلا إله إلا الله ودعوة التوحيد هي الخير كله، وهي الدِّين كله أوله وآخره ظاهره وباطنه، وما أرسل الله الرسل إلا لتحقيق هذه الشهادة ،كان موضوع التوحيد هو الفيصل بينهم وبين أقوامهم ، نعم الشريعة لكل الرسل كما قال الله ﷻ : {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}، والأوامر والنواهي تختلف من نبي إلى نبي، الآمر والناهي لجميع الخلق في جميع الشرائع التي أرسلها الله تعالى هو الله، والله ﷻ يأمر أقواماً بشيء، وينهاهم عن شيء، فالأوامر والنواهي وان اختلفت ، لكن الأخبار هي هي، يستحيل على الربّ والمصلح وهو المربّي أن يُخبر أقواماً بشيء، ويُخبر أقواماً بشيء آخر، فالأخبار هي التوحيد، أو ما يستلزم التوحيد وما يَتبعُ الآثار للتوحيد؛ ولذا القرآن كله هو في حقيقة أمره توحيد؛ النبي ﷺ قال عن سورة الإخلاص "ثلث القرآن" ثلث القرآن الأوامر، والأوامر من أجل تحقيق التوحيد وإن اختلفت من أجل تحقيق مراقبة الله تعالى في القلب وتعظيم الله ﷻ، أو إخبار عن مآل الموحدين وهو ما أخبر الله تعالى به عن الأنبياء والرسل ودعواتهم، أو ما أخبر الله تعالى عن الكافرين، وكيف أهلكهم، لأنهم تنكبوا التوحيد؛ فإذن القرآن كله توحيد، والأديان كلها توحيد، وما بعث الله تعالى الرسل إلا من أجل تحقيق التوحيد، بل سيأتينا اليوم بإذن الله تعالى أن الله تعالى ما خلق الشياطين إلا من أجل التوحيد.

ذكرنا في الدرس الماضي أن الرّب له أربعة معاني؛ المالك، والسيد، والمصلح، والمربي، وذكرنا أن المالك هو الله فالناس يملكون أشياء، والله يملك كل شيء؛ ولذا الله هو الرّب والألف واللّام في الرّب لا تطلق إلا عليه سبحانه، والله جل في علاه، هو السّيد، والسّيد الألف واللّام للاستغراق بمعنى الاستغراق الذي هو سيّد كل شيء، فهذه لا تطلق إلا على الله ﷻ، وهنالك معنيان وهو المصلح، والمربي، المصلح: إصلاح شؤون الناس، والمربي: الذي يربّي الناس، الإصلاح يخص

الدنيا، يخص الله تعالى بعض أولياءه بتربية، ويخص الله تعالى بعض الناس بالعطية، سواء كانت مالاً، أو كانت مُلكاً، أو ما شابه؛ فالآن انتبه حتى يسلم لك، إن بَنيْنا الأمور بناءً صحيحاً على أصول مستقيمة، فإن النتائج لابد أن تكون بإذن الله تعالى سليمة، والله العاصم وهو الهادي وهو الواقي ﷻ .

لا يمكن لأحد أن يشارك الله تعالى في مُلكه، ولا في سؤدده، ولا في سيادته؛ فالله له الملك وله السّيادة، أنت قد تملك شيئا، وقد تُسلب السيادة عمّا تملكه، لكن الله هو المالك، وهو له السيادة في كل الممالك؛ فأنت عندما تلبس سُترة هذه لك ولك سيادة عليها، ما نقدر أن نقول لماذا أهديته؟ ، لماذا أتلفته ؟ لماذا أحرقته ؟ هو المالك وهو السيد فيفعل ما يشاء، ولذا الله ﷻ يفعل بخلقه ما شاء، ليصلحهم، ويُريهم من آياته مثل ما رأينا من الزلازل هذه لإصلاح الخلق الله يعتب على الخلق في هذه الزلازل كما قال بعض السلف ،ﷺ فلما حصل الزلزال قال: "الله يعتب عليكم وينبهكم" كما قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}، الله يخوفنا ﷻ ، انتبه! إذن الله ﷻ المالك، وأنه سيد هذا الأمر لا يجادل فيه أحد، يوجد في بعض الخلق سيادة، ويوجد في بعض الخلق جلالة، ويوجد في بعض الخلق مُلك، هذا كله من الله؛ فالله الذي يصلح الدين والدنيا، والله يربي الأنبياء ويربي أولياءه؛ فهذا أمر خاص، لذلك بعض الناس إن أخذوا شيئاً من هذا؛ فيعود إلى الإصلاح والتربية، ولا يعود إلى مشاركة الله في السؤدد، أو في الملك، ولذا الله ﷻ يقول: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، والله ﷻ يختار للدين والدنيا، وهنا الاختيار للدين ؛ ولذا بعض العلماء يذكرون أن الله خلق الخلق واختار الأنبياء، ومن بين الأنبياء اختار الرُّسل، ومن بين الرُّسل اختار أُولي العزم، لو أردنا أن نرتب أُولي العزم الأفضل فالأفضل كيف نرتبهم؟ محمد ﷺ، ثم إبراهيم عليه السلام هذا

متفق عليه، وإن وقع في القرن العاشر الهجري فتنة وبعض أهل العلم تعلّق بالحديث الذي قيل فيه للنبي ﷺ: "يا خير البريّة فقال: خير البرية إبراهيم، فقال إبراهيم خير الخلق" الأمر ليس كذلك خير الخلق باتفاق أهل العلم محمد ﷺ، ثم ابراهيم خامسهم باتفاق ثم نوح عليه السلام ، والثالث والرابع وهو موسى وعيسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ،وقع فيهما خلاف شديد والراجح في التفضيل أنه موسى، ثم عيسى، الراجح في التفضيل محمد ﷺ ثم إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ثم موسى، ثم عيسى والدليل على هذا في رحلة المعراج وجد النبي ﷺ عيسى في السماء الثالثة، ووجد موسى في السماء السادسة أو السابعة على روايتين صحيحتين عن أنس، فاستنبط أهل العلم أن موسى عليه السلام أفضل، وشرط التفضيل في الطاعات، وفي آيات القرآن، وفي الرسل الذي أثبته الله تعالى حيث قال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} عدم انتقاص واحد منهم فإن فُهِم من التفضيل الانتقاص؛ فالواجب سدّ هذا الباب، وعلى هذا حمَل أهل العلم قول النبي ﷺ "لا تفضلوني على يونس بن مَتّي" فمتى فُهم من التفضيل الانتقاص أو الغَمز؛ فحينئذ التفضيل ممنوع، إذن خلق الله عز وجل الناس وخصّهم بأشياء.

هل يجوز أن نقول للناس أو لإنسان السيد؟ السيد يطلق لا، أم أنّ له سيادة فنعم، ولذا نقول السيدة فاطمة، السيد أبو بكر، السيد صاحب السيادة، والسيادة إما للدنيا، وإما للدين، وإما للنسب الرفيع ونحن: أهل البيت وأصحاب النسب الرفيع نجُلّهم ونحبهم، قال تعالى: {قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ}، فنحن نودُّ ونحب أهل البيت .

"جَلَالة" هل يجوز أن نقول لملك "جلالة" ؟ المسألة ليست سياسية بل شرعية، هل يجوز أن نقول فلان صاحب الجلالة؟ نعم، الجلالة تتفاوت لكن هل معنى الجلالة تُزاحم الله تعالى في

جلالته؟ لا، الجلالة المطلقة لله، ولا يمكن لأحد أن يكون صاحب سيادة، أو صاحب جلالة، أو صاحب مُلك، مهما كان ومهما بلغ أن يكون مثل الله،، لكن الناس يتفاوتون فيما بينهم ورفع الله بعضهم درجات كما ذكر الله ﷻ ولذا الكفار انتبه، وهذا محك مهم وسِر ينبغي أن نقف عنده طويلاً في الخلل في توحيد الربوبية عند الجاهلية التي لم تثمر توحيد الألوهية، لما بعث الله ﷻ نبيّه لم يكن نبياً ﷺ، قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۞ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا} انتبه! الله رفع بعضهم فوق بعض درجات قال ليتخذ بعضهم بعضاً ما قال "سِخريا" قال " سُخريا"، ليست إلا من باب التسخير، سخّر الله الناس بعضهم لبعض، لا لأن يستهزأ بعضهم ببعض، وأن تكون الدنيا هي المعيار في التفريق بين الناس، المؤمنون يعرفون ذلك، المؤمن لا يفرق بين غني وفقير، وفي قلبه تعظيم للصالح، وليس للغني، ولما العبد أصبح يُعظم الغني هذا فيه مشكلة في هذه المسألة، ونبّه عليها في موضوع التفويض والتوكيل إلى الله ﷻ أشياء تأتينا بعد قليل بشيء من التفصيل، قال الله ﷻ: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}؛ فإذن الإشكال في الأمر في أمر الله ﷻ {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} الخلق، هذا يعترف به الكفار، والأمر هذا لا يعترف به كفار قريش، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}،فالأمر لا يعترفون به، يريدون الأرض على ما يشتهون، والعجيب أن الأمر إليهم ليس فقط الدنيا وإنما الأمر إليهم في الآخرة.

إخواني أذكر لكم أصلاً مهماً، القرآن الكريم لإصلاح مفاهيم الخلق، والسنة النبوية لإصلاح سلوكيات الخلق، السنة جاءت في إصلاح السلوكيات، والقرآن جاء لإصلاح المفاهيم، والإنسان لا يكون صالحا إلا إن كانت مفاهيمه، وأفعاله متوائمة، فإن لم تكن متوائمة من جنس واحد

وقع في اضطراب، لذا لا يمكن للعبد أن يستفيد من سنة النبي ﷺ إلا بعد أن يستفيد من القرآن، يتعلّم القرآن ثم يتعلم السنة، فتكون مفاهيمه صحيحة وسلوكياته صحيحة، لذا الأمر ليس لله عند الكفار ، وهذا أمر ليس في الدنيا وإنما هذا انعكس كما سيأتينا بعد قليل على التحليل والتحريم، وكذلك انعكس هذا الأمر على حالهم بعد بعثهم ومقابلتهم لربهم، اسمع ماذا يقول واسمع حتى تفهم القرآن جيدا الله جل وعلا قال: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، إذا رجع صاحب الجاه والغنى في الدنيا إذا رجع إلى الله يقول ولئن رُجعت إلى الله فإن لي عنده الحسنى، الله أعطاني فكان عنده أن عطاء الله له وإصلاح الله تعالى لشؤون دنياه جعلته يغتر، لذا أبو جهل وكفار قريش لما يُرمون في النار ويدخلون النار يتكلم بعضهم البعض أين عمار؟ عمار بن ياسر وأمه سمية أين هم؟ أين هؤلاء الفقراء هؤلاء الصعاليك أين هم؟ فالله ذكر عنهم فقال في سورة (ص) : {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ}،مالنا لا نراهم، الأمر ليس لله أصبح الأمر إليهم أصبح الأمر والحكم على الخلق، بل وصل الأمر إلى التحليل والتحريم أصبح اليهم، فوقع هذا الخلل عندهم، وكذلك قال الله ﷻ : {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا}، إذا رجعت سيكون لي عند الله أحسن مما كان لي في هذه الدنيا، هذا حال المشركين، هذا حال الإصلاح الذي هو في الدنيا، والله يربي أنبياءه وأولياءه، هؤلاء فيما ذكر الله تعالى في كتابه يعيشون بين الخوف والرجاء ولا ينفك خوفهم ورجاءهم أبداً، وإذا انفك الخوف والرجاء وقع الخلل في العبادة، العبادة أصلها قائم على ثلاثة أمور: المحبة المأخوذة من قول الله تعالى: {الحمد لله رب العالمين}، والرجاء مأخوذ من {الرحمن الرحيم}، والخوف المأخوذ من {مالك يوم الدين}

وما زيّن الله كما زيّن لهم الجنة في القرآن، يقول الفضيل بن عياض: "ما زيّن الله الجنة لقوم كما زيّن الجنة لأمة محمد أفلا أجد مشمرا"؛ فالعبادة قائمة على ثلاثة أشياء ولابد، وهذا أمر ليس خاصاً النبي محمد ﷺ، الله ﷻ يقول :{مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} فكل الرسل الصالحون من أقوامهم، من أن أوجد الله الناس إلى يوم القيامة لابد أن يكون عندهم خوف واضح، وهذا أصل أصيل في موضوع التربية في موضوع الرب، الله قادر عليه، فمن آثار توحيد الربوبية بأن تؤمن بأن الله قادر عليك، قادر على أن يبيدك وأن يهلك ولدك، وأن يهلك مالك، فتستقيم وتوحّد الله ﷻ؛ ولذا الأصل في توحيد الربوبية توحيد الله بأفعاله مع توحيد الألوهية، وهو توحيد الله بأفعال العبيد أن يكون الأمر متكاملاً، وأن تظهر ثمرة التوحيد الأول على التوحيد الثاني، الله ربّي هو الله ﷻ مصلح، والله جل في علاه خالق، والله ﷻ له السيادة، والله ﷻ ما يفعل شيئاً إلا لحكمة ويجب على العبد أن يتسع قلبه، وعقله بأن يكون راضياً عن ربه، "ومن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السَّخط" كما عند الترمذي، ولكن فعل المقدور يجب الرضا به على فاعله وهو الله، وأما الرضا به فمستحب وليس بواجب، فالله ﷻ خلق إبليس وهل لما خلق الله إبليس هل له حكم في ذلك؟ حكم كثيرة ، حكم الله ﷻ من أهمها الموضوع الذي نتكلم عنه أن تَظهر كمال قدرة الله تعالى في الخلق، فالله الذي خلق الشيء وخلق ضده، فهذا فيه بيان كمال القدرة؛ الذي يخلق الشيء وضده، فهذا فهذا من البيان لكمال القدرة، كذلك لظهور أسماء الله ﷻ القهرية مثل؛ الله ﷻ القهار، المنتقم، شديد العقاب، لولا إبليس ما نعرف هذه الأسماء، فإبليس خُلق لا لذات خلقه وإنما للآثار المترتبة عليه، وكذلك ظهور أسمائه المتضمنة للحلم، والعفو، والمغفرة والتجاوز عن الخلق، وكذلك ظهور لآثار أسماء الحكمة، والخبرة، فهو يُعز من يشاء ويُذل من يشاء، وهو أعلم

حيث يجعل رسالته، وكذلك أصول العبادات المتنوعة التي ما نعلمها إلا بسبب خلق إبليس مثل؛ التوبة، والرجوع إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وعبودية التمايز بين المؤمن والكافر، وإلاستعاذة من أعمالهم، وعدم اللجوء إليهم، وعدم الركون إليهم، وكذلك كثير من الآيات، والدلائل الدّالة على قدرة الله، وطوفان نوح عليه السلام وإهلاك ثمود وعاد، وقوم لوط وما شابه، فهذه كلها مترتبة على خلق إبليس، فلله عز وجل حكم عظيمة في خلق إبليس؛ ولذا قال أهل العلم وهذا هو المعتقد الصحيح الذي لم يكن معروفاً عند الكفار قالوا: "هنالك فرق بين إرادة الله عز وجل في كونه وإرادة الله تعالى في شرعه" لو نركز على حال المشركين، وقررنا أن المشركين يعترفون بأن الله الخالق وأن الله الرازق، وسيأتي باب مفصل من المقريزي في كتابه (تجريد التوحيد)، وذِكر الآيات الدّالة على ذلك، وحتى لا أكرر، لكن الخلل عندهم في موضوع الأمر، وأرجو أن تنتبهوا!، هنالك غلطان متقابلان في موضوع الربوبية والألوهية، الذين يتجوّزون في توحيد الألوهية، ويرتكبون المخالفات، ويصرفون نوعاً من العبادات إلى غير الله عز وجل لا يعجبه، ولا يحب ويعترض لما تقول إن الكفار عندهم أصول توحيد الربوبية هم يريدون أن يصرفوا كفر الكفار إلى توحيد الربوبية، حتى يفعلوا ما شاؤوا في توحيد الألوهية، هذا الصنف من الناس يعني يركز كثيراً على أن توحيد الكفار توحيد يخص الربوبية، وبالتالي نحن الآن مهما فعلنا في توحيد الألوهية فنحن سالمون لسنا مثلهم، هذا خلل وخطأ، وخطأ المقابل لهذا الخطأ ولا يقل عنه اعتقاد كثير من طلبة العلم أن كفار قريش حققوا توحيد الربوبية على وجه التمام والكمال، هذا الخطأ يقرر ذاك الخطأ ،كفار قريش حققوا أن الله الخالق، وأن الله الرازق، والله يدبّر الشؤون، لكن ما أذعنوا أن الأمر لله ؛عز وجل لأنهم أصحاب هوى، ونبهنا في لفتة جيدة تحتاج لوقفة طويلة، وتأتينا والله أعلم في الدرس القادم أو الذي يليه في موضوع الهوى.

نتأمل وإياكم بعض الآيات حتى حتى يتبين لنا الخلل للكفار، الله يقول في سورة الانعام: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} ردوا شركهم إلى المشيئة، حتى التحريم -زعموا- أنّا فعلنا ما فعلنا ولا حرمنا من شيء، الله الذي حرّم ،تأمل معي دقة القرآن قال: {كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} هذا كذب، هذا افتراء، القول: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} جعله الله تكذيباً لشرعه، تكذيبا لما أنزل، لمِا بعث به الرسل، ولمِا أنزل به الكتب، {كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}، ثم ردّ الله عليهم فقال: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}؛ مايفرقون بين هذين الأمرين، {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا}، وهذا الخلل العظيم هو أصل فيه خلل أثبته الله تعالى للمشركين، ومرده خلل في توحيد الربوبية، الأمر ليس اليه الأمر إلينا، والأمر ليس لله ﷻ ، طبعاً هذه الآيات استدل بها علماء التوحيد في موضوع القضاء والقدر لو شاء الله ما اشركوا، و لايفرقون بين الأمرين ويقولون عبارات دقيقة وجميلة وقد قالها بعض الصحابة كما ثبت في البخاري عن علي ﵁ عنه لما سمعه رسول الله ﷺ ويقول: "ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومن النار فقالوا: يا رسول الله إذن نتكل فقال: ﷺ اعملوا ما شئتم فكل مُيسر لما خُلق له"، وفحوى ومعنى الآيات الله أراد بك وأراد منك، الذي أراده بك لا يعلمه أحد إلا هو، والذي أراده منك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب من أجل أن يبين لك ما ماذا أراد الله منك؛ فقال ولم نعمل؟ نتكل؟ فالنبي ﷺ حلّ هذا الإشكال بكلمة، ما عاد الصحابة يسألونها قال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"، الله أراد بكم وأراد منكم، وبين الذي أراده منكم وأخفى الذي أراده بكم فالسعيد من انشغل بماذا أراد الله منه، والشقي من انشغل بماذا أراد الله به ، "اعملوا فكل ميسر لما خلق

له"، الأظهر أيضاً للدلالة على هذا الموضوع ما قال الله ﷻ :{وإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، طبعاً السر في هذا الباب ما يذكره علماء الاجتماع، الناس كأسراب الطير يتبع بعضهم بعضاً، أن تخرج من مألوف الناس وإن كان هذا المألوف كفراً وخرافات، فهذا أمر عَسر، وهذا عمل الموفقين والله قال في كتابه: {بل قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ}، عجيب يعبدون الحجر، {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُون} آيتين في سورة واحدة، إنّا على آثارهم مهتدون، وإنا على آثارهم مقتدون فينفك الإنسان عن الاقتداء **بالكافة** والمعايير والقناعات والأفكار التي تسيطر على ذاك الزمان أن تنفك عنه، لا يقدر عليها إلا الموفق فقط والناس كأسراب القطا يتبع بعضهم بعضا وفي كل مئة تكاد تجد واحداً فقط، {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا}، قال أهل التفسير الفاحشة المذكورة في الآيات: أنهم كانوا يطوفون بالبيت –بيت الله الحرام الكعبة المشرفة– يطوفون عُراة، إلا الحُمس، انتبه! تقسيم الناس لطبقات وتفضيل بعضهم على بعض في الشرع لا وزن له فقير معدوم صالح أحسن عند الله من ملئ الدنيا من كافر غني عنده أولاد وعنده أموال وما شابه، المعيار عند الله ﷻ هو ايش؟ هو الصلاح، والنبي قال في عبارة واضحة "لو كانت الدنيا تسوى عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شُربة ماء" إصلاح مفاهيم "ما سقى منها كافرا شُربة ماء"؛ فالقضية والتقديم والتأخير عند الكفار هو الأمر {ألا له الخلق والأمر}، فيه الخلل وهذا الخلل يقتضي تقديماً وتأخيراً ويقتضي تحليلاً وتحريماً، ولذا كانوا قريش يُسمون "الحُمس" هم الذين يطوفون بالبيت يلبسون ملابسهم، ومن أراد أن يطوف لابساً ملابسه يستأجر ملابس أهل الحُمس، فيطوف بها، بعض الناس أهل حياء، وكانت النساء يتعرّين، في صحيح مسلم كما ذكرت عائشة :كانت تتعرى

أمرأة جميلة شابة تطوف بالبيت عارية وكانت تنشد وتقول كما في صحيح مسلم "اليوم –تقول عن فرجها– يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله"، ما أُحل أحداً ينظر إليه، أعوذ بالله هذا الشرك، هذا الخلل في الشرك، قارنوا بين المغرب والمشرق بين المسلمين والكفار والمسلمين على أوضاعهم وأحوالهم وضعفهم وقلة إيمانهم الكثير منهم بقوا لله الحمد والمنة بخير، النصرانية واليهودية لما تركوا الإيمان باليوم الآخر اصبحت الآن المثلية أصبحت المثلية مباركة يُغلبها أهل الديانة منهم ما أدري –الرجل اجتمع مع الرجل– كيف تكون المثلية ما أدري شيء عجيب!!؛ فالشاهد أن للإيمان بركات، وأن للإيمان ثمار، من معاني الرب ﷻ هو الذي أصلح وهو الذي يربي فسمى الله ﷻ : {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} بقوله "الفاحشة" فهذا أمر يخص الفحش في السلوك وهو يخالف المنقول ويخالف المعقول، إذن الأمر عند الكفار ليس لله ﷻ ، وإنما الأمر إليهم يتبعون عاداتهم وآبائهم وما أَلِفوه فهو الحكم هو ليس الله جل في علاه هو الحكم وليتمردوا على أوامر الله ﷻ وما استقاموا عليه.

مضطر في الحقيقة ما أدري الوقت يسمح مضطر لبيان الفروق بالتفصيل بين الإرادتين الكونية و الشرعية هنالك ستة فروق تحتاج لبيان يا ليتكم تكتبونها، وتتأملونها، وبها نختم مجلسنا هذا بإذن الله.

الفرق الأول بين الإرادتين: الإرادة الكونية قد يحبها الله تعالى ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها بخلاف الإرادة الشرعية؛ فإن الله يحبها، الكافر يكفر ويقع كفره ضمن إرادة الله في الكون والله لا يحب ذلك، الفرق الثاني الإرادة الكونية: مقصودة لغيرها ،الله خلق إبليس لتحقيق ما ذكرناه فالإرادة الكونية مقصودها لغيرها كخلق إبليس وسائر الشرور لتحصل بسببها محاب كثيرة، المحبة

والتوبة والاستغفار ، وأما الإرادة الشرعية فمقصودةٌ لذاتها وليست لغيرها هذا الفرق الثاني، الفرق الثالث: الإرادة الكونية لابد من وقوعها، فالله إذا أراد شيئاً فلابد أن يقع ؛كإحياء أو إماته، وأما الشرعية ؛ فلا يلزم وقوعها هذا شيء يحبه الله لكن لا يلزم وقوعه، ولذا الشيء الذي تحاسب عليه، أنت مخير فيه والشيء الذي لا تحاسب عليه -الذي هو في وفق إرادة الله في كونه- أنت لا تحاسب الله عليه هذا قصير هذا طويل هذا الله لا يحاسبك عليه، هذا أمر وقع شئت أم أبيت، أما الشيء الذي قد يقع وقد لا يقع هذا محاسب عليه قد تقع الصلاة وقد لا تقع قد يقع الذكر منك و قد لا يقع، الفرق الرابع: الإرادة الكونية تعلّقها بربوبية الله وخلقه، توحيد الربوبية يعود إليها، وأما الإرادة الشرعية فمتعلقة بتوحيد الألوهية وليس تعلقها بتوحيد الربوبية، فالإرادة الشرعية هي المحبة تعلقها بإرادة الله ﷻ المتعلقة بتوحيد الألوهية، ثم الخامس الإرادتان تجتمعان في حق المطيع؛ فالذي أتى بالصلاة جمع بين إرادة الله في كونه وبين إرادة الله في شرعه؛ فالارادتين تجتمعان في حق المطيع، وأما الإرادة الكونية فهي تنفرد في كفر الكافر ومعصية العاصي فقد تجتمعان وقد تفترقان، الفرق السادس بين الإرادتين الإرادة الكونية أعم من جهة تعلّقها بما لا يحب الله تعالى ولا يرضاه، فهي تتعلق بالكفر والمعاصي وما شابه وهي أخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق، الإرادة الشرعية اعم من جهة تعلّقها بكل ما هو مأمور به واقعاً أو غير واقع، وهي أخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به؛ فهذه الأمور الستة هي الفرق بين الإرادتين، وبسبب عدم الحرص ومعرفة هذه الفروق بين الإرادتين زلّت أقدام وضلّت أفهام، فمن أراد النظر إلى الأعمال الصادرة من العباد فلابد أن ينظر بهاتين الإرادتين، وأن يُحسن التفريق به بينهما كي يكون بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر، أو إلى القدر دون الشرع كان أعور ولم ينظر بالعينين، ولذا قال المقريزي كلاما

وهذا الكلام طويل، لكن لعلكم تساعدوني باختصار الوقت، الكلام هو لأبي حامد الغزالي وهذا الكلام بَسطه بسطاً لا بسط بعده، الشاطبي -رحمه الله- في كتابه (الاعتصام) وذكره في الباب الثاني من كتابه، والباب الثاني خصّه في خطاب الوضع، وخطاب الوضع هو الذي لم يكلف الشرع الإنسان به، وإنما جعله سبباً للتكليف ولم يأمره له، وهو أسباب علاقة السبب مع المسَبَّب تحتاج لنظر بعينين ومن نظر إليها بعين واحدة فهذا يكون قد ضل، الكلام للشاطبي موجود في كتابه (الموافقات)، الإمام المقريزي ذكر خمسة ثمار، وهذا موضع درسنا في الدرس القادم باذن الله تعالى ذكر خمسة ثمار قال: التوكل، ترك شكاية الخلق، ترك لومهم، الرضا عن الله ﷻ ، التسليم بحكمه -حكم الشرع وحكم الإرادة الكونية- تشمل الأمرين، الشاطبي زاد عن هذا وبسط الكلام العام المذكورة عند المقريزي في كتابه (الموافقات) وطوّل في المجلد الأول من كتاب الموافقات -بتحقيق العبد الضعيف- بدأ بصفحة مئتين وسبعة وتسعين وانتهى بصفحة أربعمئة وخمسة، وأظهر ما يلزمنا، يا ليتكم تنظروه في كلام الشاطبي ما ذكره في الجزء الأول صفحة ثلاثمائة وستة وأربعين إلى صفحة ثلاثمائة وواحد وخمسين أفاض وطوّل، وموضوع الأسباب والمسببات لها صلة بموضوع توحيد الربوبية، ويكون العبد معلّقا قلبه بربه وينظر إلى المسبب ولا ينظر إلى السبب من نظر إلى السبب وهذا شأن العقلانيين، وشأن الحداثيين ويفضي النظر للسبب دون تعلّق القلب بالمسبب إلى الاعتراض، تقول لبعض هؤلاء التثاؤب من الشيطان هذا صحيح الحديث ، هل تعتقدون أن التثاؤب من الشيطان؟ هكذا أخبر النبي ﷺ واحد حداثي واحد عقلاني واحد درس الفلسفة يقول التثاؤب في العلم نقص الأكسجين قال هذا أمر معروف في العلم، طيب نعيد السؤال من الذي انقص الاكسجين؟ الشيطان، فنحن ننظر إلى أنه الشيطان هل هذا يعارض أن نقول أن التثاؤب سببه نقص الأكسجين ؟ التثاؤب من

الشيطان وفق إرادة الله في شرعه، والتثاؤب بسبب نقص الأكسجين وفق إرادة الله في كونه، وهل هذا يعارض هذا ؟ لا ، مثلاً بالزلازل العلماء يقولون الزلازل سببها المحسوس المادي انحباس الغازات في باطن الأرض؛ فانحباس الغازات تحتاج أن تجد لها مخرجا وأن يُشق لها فتنفذ زلزال فلما تخرج هذه الغازات في المنطقة التي تخرج فيها يكون الزلزال ،كلام علمي صحيح، وشيخ الإسلام له كلام بديع في (مجموع الفتاوى)، حتى لما تتكلموا مع الناس عن النوازل تتكلمون بعلم، وتتكلمون وأصول المسائل واضحة عندكم، ذكر هذا في المجلد الرابع والعشرين صفحة مئتين وأربعة وستون: "الزلازل من الآيات التي يخوف الله تعالى بها عباده" هذا إيش؟ وفق ماذا؟ كما قال الله ﷻ : {وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}، هذا وفق سنة الله في شرعه، الله ﷻ يعتب علينا كما قال بعض السلف، صحّ عند ابن أبي شيبة وعند ابن أبي الدنيا وغيرهما: "كان عمر في بيت صفية، وصفية أخت المختار الثقفي زوجة ولده عبد الله بن عمر، فاهتزت الأرض فضربت بعضها ببعض فغضب عمر وقال والله لئن عادت لأساكنكم "فإن عاد الزلزال لا أساكنكم، هذا تخويف من الله ﷻ، نسمع كلام شيخ الإسلام يقول: والزلال من الآيات التي يخوف الله بها عباده كما يخوفهم بالكسوف وغيره من الآيات" إذن ثبت أن أنساً وابن عباس لما زلزلت الأرض صلوا صلاة الكسوف والخسوف، يعني لما يقع الزلزال ماذا نفعل؟ نصلي صلاة الخسوف والكسوف؛ فالآيات لله سماوية وأرضية ، السماوية لا تؤثر على الناس مثل الكسوف و الخسوف، لكن الأرضية تؤثر عليه فالسبيل الشرعي إذا حصل الزلزال نلجأ للصلاة، الآن عندنا واحد عقلاني حداثي يقول علماء الطبيعة ما ينبغي أن نجتمع تحت ظل سقف، قلنا له نذهب إلى الفضاء ونصلي بالفضاء ونجمع بين سنة الله الكونية وسنة الله الشرعية فمن الغباء ألا نلتفت إلى الأسباب، ومن الشرك أن يتعلق قلبنا بالأسباب ولا نلتفت لمسببها، فالأصل أن

نأخذ بالأسباب وأن نُعلق قلوبنا بمسببها وهو الله ﷻ ، وهذا هو كلام الشارح وكلام الشاطبي قال: "والزلال من الآيات التي يخوّف الله بها عباده كما يخوفه في الكسوف وغيره من الآيات والحوادث لها أسباب وحكم" -أي حادث له أسباب وحكم ، فكونها آية يخوف الله بها عباده هي من الحكمة، الحكمة التخويف-، ثم قال: "وأما أسبابه، -سبب الزلزال- ، فمن أسبابه انضغاط البخار في جوف الأرض كما ينضغط الريح والماء في المكان الضيق فإذا انضغط طلب مخرجا فيشق ويزلزل ما قرب من الأرض"، وأما قول بعض الناس الذين يعتمدون على الخرافات وعلى الاحاديث الموضوعة والمكذوبة والأحاديث الضعيفة والمكذوبة لها أثر في المعتقد تصور!!، قال: "وأما قول بعض الناس أن الثور يحرك رأسه فيحرك الأرض فهذا جهل، وإن كان نُقل عن بعض الناس؛ فإنه لو كان كذلك لكانت الأرض كلها تزلزل".

صح عن جمع الصحابة وذكره صالح ابن الإمام أحمد في (مسائله) عن أبيه ذكر عن جمع أن الرعد صوت مَلك، والمِلك يزجر الرعد يزجر السّحاب فصوته هو الرعد، الرعد صوت الملك وكذلك البرق، البرق من لمعان الماء ولمعان النار وكونه لمعان الماء أو النار لا ينافي أن يكون اللامع مخراقاً بيد الملك، قالوا البرق بيد الملك من مخراق، فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق، والملك يزجي السحاب كما يُزجي السائق المطية، فالرعد مَلك وهكذا في كل ما ينبغي، ينبغي أن تنظر إلى الأشياء كلها بالعينين ليست بعين واحدة، بعين تفهم وتعمق فيك مراقبة الله، وخوف من الله، واعتقاد أن الله رب كل شيء، وأنّ الله خالق كل شيء وأنّ الله مدبر، وأن الله ﷻ المصلح وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب، لكن قلبك تعلّقه بمسبب الأسباب وليس بالأسباب، ولهذا بسطْ في كلام الإمام الشاطبي ترجعون إليه إشاء الله، والبسط في الدرس القادم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.